

قصة الوحدة العربية

بقلم

أنور السادات

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

مقدمة

قال الرئيس جمال عبد الناصر فى خطاب ألقاه فى ذكرى 62 يوليو " أننا حينما ننادى بالقومية العربية والتضامن العربى ، أننا نهدف إلى قومية عربية حقيقية ، القومية الحرة المستقلة التى تنبعث من المنطقة ، وتنبعث من ضمير أبنائها ومن أهداف أبنائها ، ولكننا لن نقبل أبداً بأى حال من الأحوال أن نشترك فى أى تضامن عربى لنخدم خطط الاستعمار أو لتحقيق أهداف الاستعمار ، ولهذا فسنستمر لمدة بدون تحقيق التضامن العربى ، لأننا لم نتضامن مع الخونة ، ولن نتضامن مع المنحرفين ولن نتضامن مع الذين فراطوا فى بلادهم ، ومع الذين باعوا بلادهم للاستعمار .

" أننا بهذا نعبر عن القومية العربية كلها فى بلد عربى ، ونعبر عن الروح العربية التى قاتلت دائماً من أجل الاستقلال " " لقد قاتلت الشعوب العربية ، وقاتلت القيادات العربية الحرة ، وأنا بهذا نعبر عن هذه الروح ، روح مقاومة الاستعمار ومقاومة مناطق النفوذ " .

لقد عبر الرئيس جمال بهذا عن مخاوف كل عربى ، بعد أن استخدم الاستعمار دائماً التضامن العربى وسيلة يخدم بها أهدافه ومصالحه ، فالاستعمار يعرف مدى استجابة العرب وإيمانهم بالتضامن والوحدة ، ومن هنا أخذ يدفع بأعوانه لكى يحققوا أهدافه تحت ستار التضامن والوحدة !

ولم يندع العرب أبداً ، حتى فى أحلك الساعات ... فقد كشف العرب خداع التضامن الذى كان ينادى به الملك عبد الله لسبب بسيط لم يفتن له الاستعمار ، وهو أن جميع الشعوب العربية تؤمن عن يقين بأن الملك عبد الله ليس إلا أداة فى يد الاستعمار لتنفيذ أغراض ومشينة الاستعمار !

وكشف العرب رياء الوحدة التي كان ينادى بها ثورى السعيد من أول لحظة لسبب بسيط أيضاً تعرفه الشعوب العربية ، وهو أن ثورى السعيد ليس إلا عميلاً لبريطانيا يحقق لها السيطرة ويحافظ لها على مناطق النفوذ !

كان العرب يعلمون ، وكانوا يسكتون أيضاً من أجل أمل يتشبثون به ، هو التضامن العربى ، حتى جاءت اللحظة التي أوشك فيها الاستعمار أن يأخذ برقاب البلاد العربية كلها بواسطة أعوانه .

هنا جأر العرب ووقفوا يحاربون من أجل حياتهم وحریتهم ومقدراتهم .

وهنا صرخ العرب صرخة مدوية ، فهم لن يرضوا بخدمة أهداف الاستعمار تحت اسم التضامن العربى .

فالمك حسين ملك الأردن – مثلاً – كان يرفض الانضمام أول الأمر إلى الجبهة العربية المتحررة ، ولكنه عاد فجأة وانضم إلى مصر والسعودية ، ليس أيماناً منه بالقومية العربية ، وإنما كوسيلة يستتر خلفها ويسلم نفسه وبلاده لاستعمار الدولار الجديد تحت ستار التضامن العربى ، كما كان يعمل جده الملك عبد الله من قبل خداعاً وتضليلاً .

لقد كان الملك حسين يعلن عن حماسه للتضامن العربى وينادى بالوطنية الفوارة ، فى نفس الوقت الذى كان يتآمر فيه مع أمريكا ضد شعب الأردن وضد حرية الأردن ، وضد التضامن العربى ، وضد الدول العربية المتحررة .

ان انضمام الملك حسين إلى الجهة المتحررة ، لم يكن أيماناً منه بالتححرر ولا لأقامة التضامن العربى ، وإنما من أجل تفتيت الجبهة العربية المتحررة لحساب أمريكا .

فقد رضى أن يقوم بدور صنیعة أمريكا ليفسد ما بين السعودية وسوريا ومصر .

وتطوع بحماس لكى يشترك مع أمريكا فى الخطة التي تقول بعزل مصر .

كل ذلك نظير تعهد أمريكا بحمايته واعطائه الأموال التي يطلبها لينفقها على أهوائه وملذاته .

وأكثر من ذلك فقد حقق حسين أهداف بن جوريون ، حينما خرج على التضامن العربي الحر وأخذ يكيل الاتهامات لمصر وسوريا ، وقد أصبح واضحاً اليوم لكل عربي أن أهداف أمريكا هي نفس أهداف إسرائيل .

وهكذا أصبح الملك حسين ليس صنيعة لأمريكا فقط ، وإنما صنيعة لأمريكا وإسرائيل في نفس الوقت !

وهكذا تتحقق حكمة الأجداد والأبناء !

ففي سنة 1950 كان سمير الرفاعي هو رسول الملك عبد الله في مفاوضات الصلح مع إسرائيل ، هذه المفاوضات التي لم تتم بسبب مقتل الملك عبد الله ، ويشاء القدر أن يلعب سمير الرفاعي دور الخيانة نفسه سنة 1957 مع الملك حسين حفيد الملك عبد الله في المفاوضات مع أمريكا خالقة إسرائيل وصاحبة الاستعمار الجديد في الشرق الأوسط . إن العرب لن يسكتوا اليوم كما كانوا يسكتون في الماضي ، بعد أن تيقظت القومية العربية وقرضت وجودها في هذا العالم .

ولن يقبل العرب أن تستخدم القومية العربية ستاراً لأعوان الاستعمار يحققون من خلفه أهداف الاستعمار .

ولن نعود نحن العرب أبداً إلى الوراء .

ولن ننكص في سيرنا نحو أهدافنا ، ولن نجامل ولن نخادع ، وإنما سنمضي في الطريق الوحيد الذي صنعه قوميتنا العربية وسنظل نكشف خيانات أعوان الاستعمار ووسائلهم حتى تحين الساعة . . .
وعندئذ سيلاقون الحساب .

أنور السادات

الفصل الأول

الوطنية المصرية

والقومية العربية

صوت مصر

صادر من أعماق شعوب العرب

مصر وشقيقات مصر يواجهون جميعاً - اليوم - خطراً واحداً ومصر - اليوم - حين ترفع صوتها منادية شقيقاتها بالتكتل والتعاون ، والوقوف جنباً إلى جنب لمواجهة ذلك الخطر ، إنما تفعل ذلك لأنها حريصة على أن تمنع - فى هذه المرة - المأساة الكبرى التى ظلت تعصف بالعرب منذ أطل عليهم النفوذ الأجنبى ، ومنذ تحكم فى مصائرهم ذلك النفوذ

أن مصر بموقعها الراهن من الخطر الذى يهدد كيان الأمة العربية إنما تناضل نضالاً تاريخياً ، لتخليص منطقة الشرق الأوسط من كل نفوذ أجنبى ، فتصبح منطقة يسودها الرخاء والسلام والأمن يملك أبنائها على اختلافهم مواردها ويسطرون - كأصحاب كل الحقوق فى ديارهم - على سياستها ، ويوجهون - كأصحاب كل الحقوق - دفة أمورهم بما يتفق ومصالحهم لا مصالح ذلك الأجنبى الدخيل الذى يتعامل مع العرب باعتباره سيداً والعربى واحداً من أتباعه

لقد ولى ذلك العصر الذى كنا فيه نحن العرب ذيلاً للأقوياء نمضى خلف موكبهم بلا أرادة وبلا هدف ، كأننا قطيع من الأغنام نساق إلى حيث يشاء ذلك القوى المتطفل على بلادنا ، العامل دواماً على تحقيق مصالحه هو ، واستغلال مواردها وإمكانياتها وكل ما نملك ، كما أراد مستغلاً ضعفنا وتفككنا وعدم قدرتنا على مقاومته ، ومستغلاً أيضاً ضعف ذلك الجيل من السياسيين العرب المتحالفين معه والمتآمرين على مصالح مواطنيهم ، سواء عن عمد أو عن جهل وربما حباً فى الخنوع ورغبة فى الاستسلام وكان يمكن ألا تقف حكومة مصر بعد ذلك الموقف التاريخى المجيد من كل خطر يهدد وحدة الأمة العربية ، ويعصف بمصائر الخمسين مليوناً من أبناء هذه الأمة فى منطقة الشرق الأوسط ، لو لم تقم فى مصر ثورة ويتولى زمام الأمر فيها جيل سياسى جديد واقعى يؤمن بالقومية

العربية والوطنية المصرية ، ويعمل ليله ونهاره منتهجاً سياسة لا تخرج عن هذين الإطارين !

أقول : كان يمكن أن تتهاوى مصر وتستسلم وتسمح بتحطيم القومية العربية ، أو كان يحكمها ذلك الجيل من السياسيين المستضعفين الذين ترهبهم وتفزعهم رؤية قبعة ذلك الأجنبي الرابض فى أراضيهم !

لكن مصر – اليوم – بعد أن تحررت من عوامل الضعف فى داخلها وبدأت تبني أسساً جديدة لسياستها الداخلية والخارجية ، أصبح من المحال عليها أن تضعف أو تستسلم ، لأنها لو ضعفت أو تهادنت كما كانت تضعف وتتهادن دواما فى الماضى فأن الخطر لن يعصف بها وحدها بل بالشقيقات العزيزات أيضاً .

فنحن هنا فى هذه المنطقة الهامة جداً من العالم . . . منطقة الشرق الأوسط – قد ارتبطت مصائرنا تماماً كأمة واحدة تربط بيننا اللغة والدين والتقاليد والحدود المتشابهة ، فمصيرنا أذن واحد فى النهاية !

واريد أن أقول أن مصر قد درست فى اهتمام زائد – أخيراً – السياسة العربية فى هذه المنطقة من الشرق الأوسط . . . وكانت دراسة شاملة عميقة اعتمدت على الواقع والتاريخ فاستمدت اتجاهاتها من مآسى الماضى ودروس الماضى ومحن الماضى ! درست مصر – أذن – السياسة العربية وعلاقتها بالعالم العربى ، بواقعه وبظروفه ، وبأهدافه ومصالحه .

ثم درست أيضاً علاقات هذا العالم العربى بالكتل المختلفة وذلك بعد أن درست ميثاق الضمان الاجتماعى ، واستعرضت مصر خلال دراستها هذه كل المآسى التى حلت بالعرب كأمة نتيجة للسياسات المتناقضة ، لا تستمد أصولها من الواقع والتاريخ والتجارب العديدة على مر السنين !

ثم أقول أن مصر بعد أن أتمت دراستها تلك قررت أن تبلور سياستها هي ، وتحدها تحديداً واقعياً واضحاً ، وانتهت – أي مصر – إلى جعل تلك السياسة داخل إطارين لا تخرج عنهما :

الوطنية المصرية ، والقومية العربية ، بحيث لا يظهر تناقض بينهما ، وبحيث لا تكون مصلحة مصر وسلامتها ومصالحها عاملاً من عوامل إلحاق الضرر بمصالح وسلامة دولة عربية أخرى .

على هذا الأساس الذي شرحته رسمت مصر سياستها العربية ، ثم قررت أن تعمل في الحال وعلى المكشوف في حدود تلك السياسة الجديدة التي قررتها حكومتها الوطنية .
النتيجة .

وكان السجل الكامل لسياسة مصر والذي وضعته بين أيدي حكومات العرب يتلخص في هذه النقاط :

أن الأمة العربية خرجت من الحرب العالمية الأولى بحفنة من الوعود حصلت عليها من بريطانيا ، وسرعان ما نسيت بريطانيا وعودها بعد انتصارها . وبدلاً من أن تحصل الدول العربية على حريتها واستقلالها وكل حقوقها كما كان متوقعاً بعد تلم الوعود ، بقيت قوات بريطانيا تحتل مصر والعراق والأردن وفلسطين ، وأعطت بريطانيا سوريا ولبنان لصديقاتها وحليفاتها فرنسا . وجاهد العرب وكافح العرب وقتل العرب وبقي الاحتلال ! ثم جاءت الحرب العالمية الثانية وتعاون العرب مع دول الغرب كما هو معروف ، تعاونوا بكل ما يملكون من موارد وخرج العرب من الحرب المذكورة بنفس الحفنة من الوعود ، ومرة ثانية كافح العرب وناضل العرب وقتل العرب وبقي الاحتلال .

الغرب يريد تحقيق مصالحه

واليوم والعرب في طريقهم إلى تحقيق أمنيتهم ومطالبهم المشروعة والتي كافح من أجلها آباؤهم وأجدادهم ، ليتخلصوا من الاحتلال الذي يعطل نهضتهم ، يجب علينا أن نرجع إلى الوراء لنستعرض - جميعاً - المآسى التاريخية التي مرت ببلادنا حتى يمكننا وضع خطوط عريضة سليمة واضحة للمستقبل ومن أجل ذلك دعت مصر إلى التمسك بميثاق الجامعة العربية روحاً قبل التمسك به نصاً .

ودعت مصر كل العرب إلى التشبث بميثاق الضمان الجماعي روحاً ونصاً أيضاً ، وبهذا فقط يكون للأمة العربية القوة والقيمة والرغبة فلا تكون مجرد مجموعة من الدويلات الصغرى المتنازعة المتنافرة المنقسمة على نفسها .

فأنتنا وهذا حالنا - اليوم - يمكن ابتلاعنا دويلة في أثر الأخرى ، ومصر تدعو العرب أن يمشوا - جميعاً - في طريق واحد ، فينتهجوا سياسة خارجية واحدة ، لأن المعسكر الغربي يهمله أن يسطير على شعوب هذه المنطقة ليحقق مصالحه ، أما مصالحننا ، فنلنرجع

إلى سجل مآسينا التاريخية لنعرف أنها بعد أن تسطير دول الغرب على شعوبنا سوف تتحول هذه المصالح إلى حفنة من الوعود المعسولة البراقة !

وذلك سيحدث إذا ما واجهنا الغبر متفرقين منقسمين على بعضنا !

كما حدث بعد الحرب العالمية الأولى ، وبعد الثانية أيضا ، فأن الغرب أستغل انقسامنا وتفرقنا وتنافسنا ليضرب ضربته فيصرعنا ، وقد كان ، وابتلع الغرب دولة في أثر الأخرى ، ووزع على بعضه الغنيمة . . . أي أمتنا !

أما إذا تكتلنا وانتهجنا سياسة خارجية موحدة واضحة مستمدة من واقعنا وتجاربنا وتاريخنا ، فأننا كأمة عربية متحدة نستطيع مواجهة الغرب ، ونحن كتلة واحدة ، فيعجز - في هذه الحالة - عن ابتلاعنا دولة وراء الأخرى ، ولا يمكنه أبداً السيطرة والبطش بمصالحنا !

أن مصر تعلم أن هناك ضغطاً واقعاً على حكومات بعض الدول العربية ، وتعلم أيضاً أن هناك تهديدات لتلك الدول وأيضاً تعلم أن هناك وعوداً براقية وترغيباً ملحاً لكي تخضع كل دولة منها على حدة .

فإذا استمعت الدول العربية إلى نداء مصر للتكتل وتوحيد السياسة والتشبث بميثاق الضمان الجماعي وميثاق جامعة الدول العربية ، إذا استمعت هذه الدول لذلك النداء الصادر من أعماق الشعوب ومن قلوبها فأن أي تهديد أو ضغط أو وعد معسول براق ، لا يمكن أبداً أن تكون له قيمة ما ، إلا قيمة الورقة التي سطر عليها !

لن نسلم للغرب أو للشرق

أن العرب الأشقاء يقفون - اليوم - بين الشرق والغرب لسنا مع هذا المعسكر أو ذاك ، ومن المحال أن نسلم في سيادتنا فننقذ قوميتنا ومصالحنا ، إذا ما قررنا التكتل وانتهاج سياسة عربية خارجية موحدة .

لكن ما دمنا منقسمين ومختلفين ومفكرين فإن الكتلة العربية تصبح خيلاً لا ظل له من الحقيقة ، وفي هذه الحالة ستسلم الدول العربية برغبتها أو رغماً عنها بما يملئ عليها .

وعلى هذا الأساس نادى مصر كل الحكومات العربية وقالت مصر لهم : انسوا الماضى وخلافات الماضى وابدعوا عهداً جديداً فى تطبيق ميثاق الجامعة العربية حتى لا تتكرر مآسيكم العديدة التى حدثت فى الماضى .

وابدعوا عهداً جديداً وطبقوا ميثاق الضمان الجماعى العربى كما وضعتموه فإنه لا يزال — حتى اليوم — حبراً على ورق ، فأذا فعلنا هذا فسيثق كل منا فى نفسه ، ثم فى الآخرين ، وستفشل كل المحاولات التى يبذلها الغرب للسيطرة علينا ، وجرنا إلى شبكة أحلافه ، دولة وراء الأخرى ، فلدينا ميثاقنا الجماعى ، لدينا السلاح الذى ندافع به عن أنفسنا وعن قوميتنا ومصالحنا، فلماذا نلجأ إلى غيرنا ، وهذا الغير كما هو واضح لكل شعوبنا تتعارض مصالحه مع مصالحنا ؟

أن مصر عندما تقف فى وجه هذا الخطر الداهم هذا الموقف التاريخى المجيد ، إنما تعبر عن أرادة شعوب العرب وعن رغبات تلك الشعوب ، فلماذا لا يلتزم المسئولون العرب جميعاً — نفس الموقف ، فلا تتحدى أرادة شعوبنا ، ونمزق شمل وحدتها من أجل مصالح الغير ، وهى — كما قلت — تتعارض مع مصالح شعوبنا ؟

وقد اجتمع رؤساء حكومات العرب فى القاهرة ليحددوا موقفهم من شعوبهم ، وهل هم مع الشعوب أم مع أعداء تلك الشعوب ؟

أن مصر فى خلال تلك الاجتماعات كانت تضع قدميها على أرض صلبة ثابتة ، كان موقفها واضحاً جداً .

كان صوت مصر يدوى فى تلك الاجتماعات معلناً أن لا أحلاف عسكرية مع تركيا التى لا تملك هى نفسها مصيرها والتى تتبادل المعونة مع إسرائيل . . . عدوة العرب والحجر المغروس فى قلب الشرق الأوسط .

ومضى صوت مصر يعلن الحقائق فى تلك الاجتماعات ، ومضى صوت مصر يشرح الموقف ، وكل كلمة قالتها مصر إنما هى صدى لما يتردد فى أعماق كل الشعوب العربية ، ومصر إنما حددت موقفها هذا من الأحلاف وهى تؤمن أن كل عربى فى كل قطر من أقطار العرب يقف نفس الموقف . فلماذا — أذن — تقف بعض حكومات العرب موقفاً يخالف موقف شعوبها ، ولحساب من تتخذ تلك الحكومات هذا الموقف وما هى نتيجة تحدى مشاعر الخمسين مليون مواطن فى هذه المنطقة ؟

أننى أقول للملايين العربية أن مصر تتأشدهم الوقوف كما أنتم ، صفاً واحداً لمواجهة الخطر الدايم الذى أطل على الشرق الأوسط .

www.anwarsadat.org

مهزلة المهازل

قلت أن مصر حددت سياستها العربية حددت سياستها العربية داخل إطارين ومن المحال إخراجها - أى هذه السياسة - منها .
أولاً - الوطنية المصرية .
ثانياً - القومية العربية .
ووضعت مصر - كما قلت - السجل الكامل لهذه السياسة الواقعية الجديدة بين يدي حكومات الدول الشقيقة .

وقالت مصر للشقيقات : " لا أحلاف أجنبية فعندنا ميثاق الضمان الجماعي ، وما علينا إلا أن ننفذ نصوصه بالتحديد فوراً فنتحرر من سيطرة الأجنبي علينا فوراً أيضاً " وكنا ملتزمين حدود الصراحة التامة فى توضيح الموقف هنا فى الشرق الأوسط ، وعرفت حكومات العرب ألف باء السياسة المصرية العربية فى عهد ما بعد فاروق .

عرفت - مثلاً - أن مصر ناضلت منذ قامت الثورة نضالاً مستمراً وصمدت عند موقفها وهى فى سبيل حل قضية البلاد الوطنية ، فرفضت الأحلاف العسكرية كثن لحل القضية ، ولم تقف جهود دول الغرب عند حد ، فمضت تلح على الثورة لكى تقبل هذا الوضع . . . قالوا " لتوقع حكمة مصر حلف الشرق الأوسط ، وإلا فلن يتم الجلاء عن قنال السويس " ولم توقعه حكومة الثورة ، بل كان ردها على هذه المساومة قاطعاً وحاسماً .

وفوجئ الغرب بهذا الموقف العجيب من حكومة عربية لا تملك القوة التى تجعلها تتحدى الغرب وترفض التعاون العسكرى معه ، بل تهدد بإثارة حرب عصابات فى منطقة قنال السويس هنا ظهرت حقيقة كبرى على المسرح السياسى فى منطقة الشرق الأوسط ، وهى أن دول الغرب لما تأكد لها أ،ه قد ظهرت فى الشرق الأوسط حكومة تقف إلى جوار شعبها وتعدده بخوض معركة مسلحة يشترك فيها الجيش جنباً إلى جنب مع الشعب ، بل

– هنا تراجع الغرب ، لا لأنه وتستعد فعلاً وتعد الجيش والشعب لهذه المعركة – أقول
خاف من حرب القنال الوطنية فقط بل لخوفه من امتداد تلك المعركة الوطنية المسلحة إلى
عمان وبغداد وكل قطر متاخم للقتال فيه قوات محتلة !

فأى انتصار للشعوب العربية أقوى من هذا ؟ وأي تغيير هائل هذا الذى طرأ على
الموقف السياسى فى الشرق الأوسط ؟

أنه وعى الشعوب العربية التى وقفت فى وجه الأحلاف منذ أطلت بشبحها عليهم ثم
خاضت معارك عديدة فى سبيل تحطيمها ، وموقف الشعب المصرى من مشروع صدقى –
بيفن – الذى نص على الدفاع المشترك ، أن موقف الشعب المصرى من ذلك المشروع
كان صارماً وحاسماً فلم توقعه حكومة صدقى خوفاً من ثورة الشعب وكان قد تحرك فعلاً
ليثور فى ذلك الوقت .

وفى العراق وقف الشعب العراقى الباسل نفس الموقف من اتفاقية جبر – بيفن – فلم
تتم المساومة .

وفى كل بلد عربى كان الشعب يلعن الأحلاف ، ويهتف من أعماقه بسقوطها ، وبسقوط
كل حكومة تتحرك لتوقع حلفاً عسكرياً .

وفى لبنان وسوريا والعراق وقفت الشعوب العربية بكل عواطفها مع شعب مصر أيام
محنة صدقى – بيفن .

وكذلك قامت شعوب العرب بنفس التأييد لشعب العراق الباسل وهو يناضل ليحطم
مشروع جبر – بيفن فكيف انبعث – أذن – هذا الوعى العظيم فى أعماقنا نحن الشعوب
العربية ؟

أنى لا أريد أن أدخل فى تفاصيل – عليمه – لأرد على هذا السؤال . فالمسألة ببساطة
هى أن الشعوب العربية أحست بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة بالخدعة الكبرى التى
اكتت هذه الشعوب ضحية لها طوال أعوام الحرب ، وذلك عندما رفضت بريطانيا الجلاء
عن بلاد العرب المحتلة ، تنفيذاً لوعود الحلفاء المتعددة للعرب أثناء الحرب .

بل أن الموقف كان واحداً في كل البلاد المستعمرة في هذا العالم ، ففي آسيا خدع الحلفاء الشعوب بوعودهم ، فوقفت تلك الشعوب إلى جانبهم ، وهي تأمل أن تتحرر بعد النصر ، فتجلوا قوات الحلفاء عن أوطانهم ، فحاربت جنباً إلى جنب معهم وأستشهد الملايين من أبناء آسيا من أجل الحلفاء ، ثم انتصر الغرب وأبقى قواته في أماكنها ، ليستأنف سيطرته على آسيا لكن الوضع الجغرافي للبلاد هناك ، لوجود أحراش وغابات وجبال ، ولبقاء السلاح في أيدي الشعوب الآسيوية حتى بعد انتهاء الحرب – لوجود كل تلك العوامل – قامت معارك مسلحة ضد المحتلين كلل معظمها بالنجاح .

وهكذا لم تحقق شعوب آسيا استقلالها إلا بالدم ، لأنها انسأقت وراء وعود الغرب حتى انتصر وهنا أنكر وعوده .

المسألة أذن أصبحت واضحة المعالم تماماً أمام شعوب العرب ، فقد عرفوا أن التحالف بين الضعفاء والأقوياء مهزلة وخدعة يستغل بها القوى الضعيف ويسوقه إلى حيث يشاء بلا ثمن ومن أجل هذا رفضت الشعوب العربية الارتباط بأحلاف ، لأنها شعرت أن مصالحها لن تتحقق على هذا الأساس .

ثم قامت في مصر ثورة لتحقق إرادة الشعب المصري ، فاكتسحت في طريقها العرش والإقطاع والأحلاف ، وبالرغم من حدوث هذا التغيير الضخم في ميزان القوى في الشرق الأوسط ، أي بالرغم من وضوح موقف مصر حكومة وشعباً تجاه الأحلاف لم ييأس الغرب ، ولم يكف عن محاولاته لفرض الأحلاف على حكومات العرب ، وكانت آخر محاولة هي محاولته عزل الدول العربية بعضها بدخول واحدة وراء الأخرى في حلف : العراق – تركيا – باكستان – إيران – إنجلترا – أمريكا وأخيراً إسرائيل .

هل شهد أحد ، أو سمع أحد في بلاد العرب أعجب من هذا ، فنحن العرب مطلوب منا أن نوقع حلفاً مع إسرائيل ، بإرادتنا وباختيارنا !

وماذا أيضاً ؟

أن مهزلة المهازل قد ظهرت أخيراً في بلاد العرب .

أن العرب ربما كتب عليهم أن يشرّدوا ويجمّعوا ويموتوا ، وتمتحن وطنيتهم وادميتهم
ويطردوا إلى الكهوف والعراء ، باختيارهم وعن رغبة منهم .

وماذا أيضاً ؟

ماذا وراء الحدود هناك فى العراق ، أن لم تكن مهزلة المهازل؟

وأى عون ضخم للنفوذ الاجنبى فى الشرق الأوسط يمكن أن يناله الغرب أكثر مما
أعطاه اتفاق نورى - مندريس ؟

أن الغرب لم يكن يأمل فى أكثر من هذا ، فى دق أول مسمار فى كيان الأمة العربية ،
ثم تتوالى بعد ذلك المسامير .

وهنا يتحقق للغرب هدفه باختيارنا وعن طواعية وكرم حاتمى جدا !

ويكون الحلف الذى رفضته مصر وأصرت على رفضه ، حكومة وشعباً ، وقد حاز
القبول لدى دولة عربية فيها قوات محتلة ، أى خطر قائم فعلاً داخل الحدود ، وليس وراء
الحدود وفى هذه الحالة تعزل الدول العربية التى ارتبطت بميثاق جامعتها ، عن شقيقتها
واحدة وراء الأخرى ، فينهار البناء الذى تريد مصر أن تجعل منه قوة فعالة ظاهرة لها
قيمتها وكيانها القومى الموحد .

وهذا البناء الذى لا يريده الغرب أن يتم هو ميثاق الضمان الجماعى ، فمصر قد أعلنت
شقيقاتها بالخطة كاملة داخل إطارين لا ثالث لهما : الوطنية المصرية ، والقومية العربية .
وبشرط ألا تكون الوطنية المصرية عاملاً من عوامل أضعاف قضية شعب عربى آخر .

قالت مصر للشقيقات : " أننا - جميعاً نكون أمة عربية تشترك فى الحدود واللغة
والظروف والدين والمصالح ، فإذا أصبح لهذه الأمة قوة ظاهرة مستقلة وسط المنظمات
العالمية على اختلافها ، وهذه القوة غير خاضعة لأى نفوذ أجنبى على الإطلاق ، مثل
ميثاق الضمان الجماعى الموجود فعلاً على الورق ، والذى يمكن - فعلاً - أن يصبح
حقيقة واقعة فى الحال ، إذا أصبح للأمة العربية هذه القوة المستقلة التى نتحكم نحن
العرب فيها لا الأجنبى ، استطعنا حماية مصالحنا من كل نفوذ أجنبى بدلاً من أن يفرض

الاجنبى مصالحه علينا ، ويتدخل فى شئوننا ، ويمنع كل محاولة للقفز بشعوبنا نحو التقدم ، فمصالحه تتعارض مع تقدم الشعوب .

فالحكومة العربية – أذن – التى تنسلخ عن شقيقاتها وترتبط بحلف من هذه الأحلاف ، لا يكون هدفها الدفاع عن مصالح دولتها كما تدعى ، بل هى – فى هذه الحالة – تعمل على تهديد مصالح شعبها ، متآمرة على هذه المصالح مع الأجنبى الذى ارتبطت به ! هذا هو الموقف الآن فى الشرق الأوسط ، وليس هناك موقف ثان .

أننا لا يصح أن نسمح – شعوباً وحكومات – للذين يعملون على هدم أمتنا العربية ، وتفكيك وحدتها بارتكاب هذا الوزر العظيم . ولنستفيد بما يجرى – الآن – فى العالم داخل المنظمات والتكتلات الدولية .

ولا توجد منظمة فى أى مكان فى العالم تربط بين دولها روابط حقيقية فى اللغة والدين والحدود والظروف مثل دول منطقة الشرق الأوسط ، وبالرغم من هذا فإن عوامل الانهيار قد بدأت تظهر فى بنائها ، فى الوقت الذى نرى فيه – مثلاً – موقف دول غرب أوروبا التى أرادت تكوين الجيش الأوروبى ، فتلك الدول لا تربط بينها مثل هذه الروابط التى تربط بيننا نحن العرب ! وبالرغم من هذا فإن دول غرب أوروبا لم تنسلخ إحداها عن باقى الدول وترتبط فى حلف خارجى آخر رغم أرادة باقى زميلاتها ، بالرغم من أنها تختلف دواماً ولا تقف موقفاً موحداً من تكوين ذلك الجيش الأوروبى فهو – أى الجيش – لم يتكون حتى الآن ، لكن تلك الدول المطلوب منها أن تخلق الجيش الأوروبى لم يصبها اليأس ، ولم تلجأ إحداها إلى جهة أخرى أو تنفصل عن بعضها .

ونحن العرب إذا كنا لم نضع ميثاق الضمان الجماعى موضع التنفيذ حتى اليوم ، فإن اللوم يقع علينا ، حكومات وشعوباً ! وكما – قلت – فإن مصر قد حددت الموقف أمام العرب بصراحة ، ورسمت أمام شعوبهم وحكوماتهم الطريق الذى يحقق كل مصالحهم .

ولكى تضع مصر هذه السياسة القومية موضع التنفيذ رفضت بحزم وفى إصرار الدخول فى حلف مع الغرب ، حتى لا تكون – أى مصر – عاملاً من عوامل تحطيم كيان الأمة العربية !

مصر – أذن – حريصة على خلق هذا الكيان العربى ، لا بالكلام والخطب والحفلات ،
وأما بالعمل السريع الحاسم ، وبالواقع الملموس .

أن مصر قد حصلت رغم موقفها الوطنى الصريح على حقها فى الجلاء ، لأن الغرب
عرف أنه المحال – إطلاقاً – فرض حلف عسكرى على حكومة الثورة ، خارج نطاق
الجامعة العربية ، كما عرف أنه من المحال إقناع مصر بتحطيم كيان العرب وأعطاء دول
الشرق الأوسط فريسة للأجنىبى ، فأن مصر لم تقم ثورتها ألا للقضاء على كل نفوذ أجنىبى
يعطل تطور شعوب العرب التى تشترك مع مصر فى اللغة والحدود والدين والظروف
والمصالح الواحدة المتشابهة .

فأننا نحن العرب كما قلت أمة واحدة ، لنا قومية واحدة ، وهدف واحد مشترك ، هو
الخلاص من السيطرة الأجنبية ولا توجد قوة فى الوجود يمكنها أن تفرض على حكومة
الثورة حلفاً أجنىبياً غير ميثاق الضمان الجماعى العربى ، لأن حكومة الثورة تؤمن بأن هذا
الميثاق هو السبيل الوحيد لخلق القوة المنبعثة من خارج حدود هذه الأمة !

وبين السياسة العرب اليوم من يدعى أن الدول العربية لن تحصل على حاجتها من
السلاح لتدافع عن نفسها إلا إذا قبلت شروط الغرب ، أى تدخل معه فى حلف خارج نطاق
الضمان الجماعى ، وهذا الذى يقوله بعض السياسة العرب أن دل على شئ فعلى الخاطئ
للموقف فى هذه المنطقة .

فالغرب إذا ما حقق هدفه عندما توقع الدول العربية حلف الشرق الأوسط ، سوف يبدأ
فى انتهاج سياسة مع العرب ، ونفس السياسة سيتبعها مع إسرائيل فهى أيضاً حليفة له
فمثلاً إذا أعطى الغرب لإسرائيل مدفعاً فسيعطى العرب جميعاً أى الخمسين مليوناً مدفعاً
واحداً من نفس النوع ، وأذا سمح الأجنىبى الذى ارتبطنا به – مثلاً – لنا نحن العرب
ب طائرة فسيعطى إسرائيل نفس الطائرة .

أى أن الأجنىبى الذى يعمل بعض سياسة العرب على الارتباط به ، سوف يضعنا نحن
العرب جميعاً فى كفة ، ويضع إسرائيل فى الكفة الأخرى .

فانظروا أذن يا رجال العرب ويا ساسة العرب هذا الشرق الأوسط النهائية التي تريدون
أن تضعوها لشعوبكم ، انظروا كيف أنكم تسلمون مصائر هذه الشعوب لجلادكم .
أنكم تجعلون من إسرائيل نداً لكم في هذا الشرق الأوسط ، وإسرائيل هي عدوتكم
الأولى هنا في الشرق الأوسط .
أنكم تحكمون بالإعدام على القومية العربية ، أنكم تدوسون مقدساتكم بالنعال ، أنكم
تتاجرون بمصائر الملايين المشردة في الشرق الأوسط والملايين التي ستشرد فيما بعد ،
عندما يصبح حلف الشرق الأوسط حقيقة واقعة .
وعندما لا يصبح لكم كيان عربي وعندما تتفتت الوحدة العربية ويدفن ميثاق الضمان
الجماعي العربي في قبور بغداد !
فسلام على موتاكم في فلسطين ، و سلام على شعوبكم المريضة الجاهلة العارية ،
و سلام على المستقبل كله .

المسار الأول

شرحت موقف مصر بالتحديد تجاه الأحلاف الأجنبية ، وتحدثت عن سياسة مصر العربية ، وقلت أن مصر تؤمن بأن السبيل أمام دول العرب للتخلص من السيطرة الأجنبية هو فى ميثاق التضامن الجماعى العربى ، وليس فى غيره على الإطلاق ففى ذلك الميثاق ضمانات لنا نحن العرب ، لا توجد فى أى منظمة أخرى خارج منطقة الشرق الأوسط العربى .

فى ذلك الميثاق ضمان لنا من السيطرة الأجنبية ، وبداية للاستقلال بالرأى فى سياستنا الموحدة ، حتى إذا شعرنا نحن العرب بخطر يهد مصالح شعوبنا استطعنا – ونحن كتلة واحدة لها كيانها المستقل – أن نحدد فى الحال موقفنا من ذلك الخطر فنواجهه ونمحقه ، بدلاً من التهاوى أمامه والاستسلام له كما يحدث – قطعاً – عندما نرتبط بحلف أجنبى يسيطر عليه الغرب وإسرائيل !

وأقو – هنا – أن بعث القوة فى ربوع الأمة العربية الموحدة المرتبطة مصالحها والموحدة أهدافها ، هو ما تكافح مصر من أجله منذ قامت ثورتها .

أن ما أصابنا فى الماضى من جراء سياستنا العربية المتناقضة ، والضعف الذى كان طابعنا كلما أطل علينا خطر يهدد مصائرنا ، وعدم وجود كيان عربى قوى يرهب كل الأعداء ، أى ميثاق موحد خاضع فى نصوصه لمصالح شعوب العرب أولاً وقبل كل شئ ، وأيضاً ما أصابنا من وجود سياسة عرب من الجيل أذلى تعود الانحناء أمام الخواجات والسير فى ركابهم ، كل هذا وغيره من عوامل الانهيار والذل والخنوع الظاهرة فى كياننا العربى قد جعل الأجنبى يعمل دوماً على إبقائنا كما نحن بلا كيان موحد قوى ، حتى نسهل عليه عملية افتراسنا ، وسلب حقوقنا بل أبادتنا ، بإحلال شعوب أخرى مكان شعوبنا العربية كما حدث عندما جاءوا إلى فلسطين بشرذمة من الأفاقين المغامرين ، وفرضوهم فرضاً على الوطن العربى ، ثم استولوا على ذلك الوطن ليعيش فيه شعب غريب دخيل طارئ على الشرق الأوسط ، أما الشعب الأصيل صاحب الأرض وصاحب كل الحقوق فأين هو الآن يا عرب ؟

أن إسرائيل لم تخلق صدفة ، أما خلقت لتهدد كيان الأمة العربية وتمهد لتمزيق تلك الأمة ، وتشريد أبنائها ، وسلب أرزاقهم وإفساح الطريق أمام النفوذ الأجنبي ليمضى كما هي العادة فى السيطرة على المنطقة كلها .

أنهم خلقوا إسرائيل لهذا السبب فقط ، لتكون رأس الرمح الذى يسدد إلى قلب الأمة العربية ليحطم وحدتها ويمزق رقعتها ويشيع فيها الاضطراب ، والخلافات والتناحر ، فيظل العرب كما هم – مشغولين – بخلافاتهم وتنازلاتهم وتناحرهم ، فلا يعملون على بعث قواهم لمواجهة الأخطار والسيطرة الأجنبية .

وكما قلت إسرائيل لم تخلق صدفة ، ففى الوقت الذى أنكر فيه الغرب وعوده للعرب بعد الحرب العالمية الأولى ، فلم نحصل نحن العرب على حقوقنا ، كما كان معلوماً أثناء قيام تلك الحرب ، وبعد وقوف دول العرب إلى جانب الغرب ، فى نفس الوقت نجد الغرب قد منح الصهيونية وعداً قاطعاً عام 1917 لقيام دولة إسرائيل ، وهو المعروف بوعد بلفور !

وتحقق الوعد – فعلاً – وقامت إسرائيل فوق جماجم أبناء الشعوب العربية والمصالح العربية ، والقومية العربية .

هذا والعرب هم الذين وقفوا إلى جانب بريطانيا وساعدوها على النصر فكافأتهم بخلق إسرائيل . . . !

نحن العرب – أذن – لا قيمة لنا على الإطلاق فى نظر هؤلاء الأجانب .

أنهم يعدوننا فقط ، أما ما بقى أى تنفيذ الوعد ، فبين سياسة العرب وزعماء العرب أقطاب تعودوا أن يخضعوا وينحنوا أمام كلمة الأجنبي وأوامره ، وفى هؤلاء السياسة العرب الخاضعين المتآمرين على شعوبهم الكفاية ، ليظل الأجنبي فارضاً نفسه علينا ، مقدماً مصالحه على مصالحنا ، ناهباً أرزاقنا ومستغلاً مواردنا .

وبعد هذا ، عندما تقول مصر لحكومات العرب – بصراحة – أن مأساتنا – جميعاً – واحدة ، وأن عدونا واحد هو النفوذ الأجنبي فتعالوا نتكتل أمام المصيبة الواحدة لنخرج

من نطاقها ، وعندما تقول مصر لحكومات العرب أن السبيل إلى هذا هو القوة المنبعثة من
كياننا كأمة واحدة ، وعندما تقول مصر لحكومات العرب ، عندنا ميثاق الضمان الجماعي
تعالوا نحوله من حبر على ورق إلى حقيقة واقعة ، ولدينا كل الإمكانيات ، وعندما تقول
مصر لحكومات العرب تعالوا نحدد سياستنا الخارجية على أساس مصالحنا كعرب ، كأمة ،
عندما لا تخفى مصر شيئاً من الحقائق والخطط المنبعثة من واقع حياة العرب يفسر بعض
أقطاب العروبة هذا الكلام بأن يتحالفوا مع تركيا وإسرائيل ويرتموا في أحضان الغرب .

وحيثما اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في 10 ديسمبر 1954 ، قابل
الرئيس جمال عبد الناصر وزراء خارجية الدول الشقيقة ، كل وزير منهم على حده .

وقال الرئيس جمال لهم ، أن سياسة مصر العربية تنحصر في أن وطنيتنا المصرية لا
يصح أن تلحق الضرر أو تطغى على القومية العربية ، وقال لهم أن مصلحة مصر لا
تتعارض - إطلاقاً - في أية ناحية مع مصلحة شقيقتها ، بل أننا نعمل - الآن - ونحن
نؤمن أن المصلحة الوطنية لشعب مصر يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع القومية العربية
نفسها ، ثم قال لهم : " أن الخلاف الوحيد الذي يمكن أن يؤثر على كياننا العربي الموحد
والذي يمكن أن يضعف من مقوماتنا ، ينحصر في وجود خلاف - أي خلاف - بيننا في
السياسة الخارجية " .

وأنتهى الرئيس جمال حديثه - الصريح - مع وزراء الخارجية العرب أن طلب أن
تتفق الدول العربية على سياسة واحدة محددة تواجه بها العالم كله كتلة واحدة فيصعب
تمزيق شملها وعقد وزراء الخارجية تسع جلسات ، ثم اتفقوا على السياسة الخارجية
وكان الاتفاق على ما يأتي : -

أ - تركز السياسة الخارجية للدول العربية على ميثاق الجامعة العربية ومعاهدة
الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين الدول العربية وعلى ميثاق الأمم المتحدة ولا تقر
عقد أحلاف غير ذلك .

ب - التعاون مع الدول الغربية على الأسس التالية من غير الدخول في أحلاف
عسكرية : -

1 - حل القضايا العربية حلاً عادلاً .

2 - إتاحة القوة اللازمة للبلاد العربية كي تحافظ على سلامتها وكيانها من أى عدوان بدون أن يكون فى ذلك انتقاص من سيادتها .

ثم تحفظ العراق التحفظ الأتى : -

أن العراق يحتفظ لنفسه بحق تعديل المعاهدة العراقية البريطانية على غرار ما فعلته مصر مع بريطانيا مع إضافة إيران وتركيا فى حق عودة القوات البريطانية إلى العراق . ووافق وزراء الخارجية على هذا التحفظ .

والمفهوم من تحفظ العراق أنه سينفق مع بريطانيا على إجلاء جنودها من " الحباتية والشبية " .

ثم أتفق وزراء خارجية العرب على أن يجتمعوا فى يناير 1955 ، تمهيداً لاجتماع رؤساء الحكومات العربية ، وذلك لتنسيق هذه السياسة وتدعيمها اقتصادياً وعسكرياً .

لقد خرج وزراء خارجية دول العرب من تلك الاجتماعات وهم يشعرون بالاطمئنان الشديد على الخطة العملية التى وصلوا إليها ، شعروا يومها أن القومية العربية فى طريقها - أخيراً - إلى أن تصبح حقيقة واقعة ، بعد أن كانت مجرد خيال .

ثم بعد أن اطمأن العرب على مستقبلهم الذى حددوا برنامجه ورسوموا خطوطه العريضة الواضحة ، حمل الأثير إلى أذان العرب حكومات وشعوب بيان حكومة العراق الذى أعلنت عنه اتفاقية نوري - مندريس يوم 12 يناير سنة 1955 .

كانت مفاجأة للشعوب العربية كلها ولحكومات تلك الشعوب ، فها هو المسمار الأول فى كيان القومية العربية تدقه دولة شقيقة ، وليس إسرائيل أو إنجلترا أو أمريكا ، دولة شقيقة هى التى تحاول القضاء على هذه القومية وتبدد شمل العرب لمصالح النفوذ الأجنبى !

أن حكومة العراق لم تؤمن بمصالح الشعوب العربية فقررت أن تتسلخ عن كيان الأمة العربية ، متحدية مشاعر كل شقيقتها ، ومتحدية أيضاً مصالح شعب العراق نفسه .

وأنا أتحدث هنا كمواطن عربى فأقول ما فائدة ميثاق الضمان الجماعى أذن ؟ بل لماذا يبقى هذا الميثاق المظلوم ما دامت هناك حكومة عربية ، وربما حكومات أخرى غيرها لا

تعترف بنصوصه أو حتى بوجوده فتلجأ إلى غيره من المواثيق التي يسيطر عليها الأجانب وإسرائيل

ولماذا لا يلغى هذا الميثاق العربي – فى الحال – ما دام لا يساوى فى نظر بغداد وغيرها من عواصم العرب قيمة الورقة التي سطر عليها ؟

أننى كما أقول أتساءل كمواطن عربى فقط لأنى أريد أن أعرف – كمواطن عربى – الموقف بالتحديد ، فالمسألة لا تخص العراق أو بيروت أو دمشق أو القاهرة ، بل تخص خمسين مليوناً أنا واحد منهم ، يعيشون فى منطقة الشرق الأوسط ، ويتكلمون لغة واحدة ويعتقون ديناً واحداً ، ومصيرهم فى الحاضر والمستقبل واحد ، لأن لهم قومية واحدة .

أن كل واحد من الخمسين مليون عربى هنا فى الشرق الأوسط ، يتساءل مثلى عن سر بقاء ميثاق الضمان الجماعى – حتى الآن – على الورق . ، ولماذا لا يصبح حقيقة واقعة – فى الحال – أو يلغى فى الحال ، فيتحدد بعد ذلك موقف كل حكومة عربية من مصالح شعبها ومن مستقبله ؟

أما مصر فأن موقفها لن يتغير ، فهى ستقف كالعراق هنا فى الشرق الأوسط لتقاوم بكل ما تملك من قوة وأيمان الأحلاف ، حتى لا يتمكن الأجنبي منا مرة ثانية ويجعلنا عبداً له وهو السيد المطاع .

أن مصر ستصمد ولن تغير من موقفها كما صمدت أمام الغرب عندما أراد فرض حلف الشرق الأوسط على حكومة الثورة كثمان للجللاء .

وكان النصر فى النهاية لحكومة الثورة ، لأنها كانت تستمد موقفها ذلك من أرادة الشعب المصرى .

وكل حكومة عربية أصبح يتحتم عليها أن تضع أمامها مصلحة شعبها أولاً ، قبل أن تضع فى حسابها مصلحة إسرائيل وتركيا وباكستان وإيران وإنجلترا وأمريكا إلى آخر القائمة التي لا تتضمن – إطلاقاً – مصلحة واحدة لأى عربى فى الشرق الأوسط .

فإذا أرادت حكومة من حكومات هذه الدول العربية ، أن تتخلى عن شعبها ، وترتمى فى أحضان الغرب ، فلتحدد موقفها – أذن – فى الحال هل هى مع العرب أم مع إسرائيل ؟

ثم ليمزق ميثاق الضمان الجماعى العربى فى الحال أيضاً ويترك المر بعد ذلك للشعوب العربية نفسها ، فهى فى هذه الحالة تصبح مسئولة عن حماية مصالحها ، بعد أن تخلت الحكومات عنها .

وبعد ذلك سلام على شهداء فلسطين وسلام على القومية العربية ، وسلام على مصالح العرب وأرزاق العرب ومستقبل العرب !

مدرسة الخيانة

منذ بدأت تفوح فى الجو رائحة الخيانة التى أقدم عليها نوزى السعيد بجرأة هذه المرة لأنه أعلنها ، وكان من قبل يرتكب خيائته ولا يعلنها بمثل هذه الجرأة ، أقول منذ فاحت هذه الخيانة وأنا أتحرق لكى أعود مواطناً غير مسئول حتى أستطيع أن أقول كلمتى بصراحة من غير أن أخرج أحداً أو أسئ إلى وضع ، ولكن شاء السيد نورى السعيد أن يعفنى من هذا الحرج بتصميمه على المضى فى خيائته إلى آخر الشوط لقد نكبت شعوبنا بالاستعمار والانقسام والاختلاف وشهوات الأنانية ، وحب الذات وعشرات الشهوات الأخرى بفعل مدارس الخيانة التى قامت فى داخل شعوبنا على يد أبناء من هذه الشعوب ، قامت هذه المدارس أساساً على أيدى أبناء من شعوبنا كما قلت يصفون أنفسهم تارة بالواقعية وطورا بالأفق الواسع لكى يبشروا بين مواطنيهم بمبادئ جديدة للوطنية هى الخضوع والتسليم للمستعمر الغاضب لأننا ضعفاء ولن نستطيع أن نصل إلى قوة هذا الغاضب وأذن فلا بد من مصادقته ولكى يبرروا هذه الصداقة لا يمنع الأمر أن يصفوها فى تبجح صداقة " الند للند " لكى يضللوا الشعوب بالألفاظ فى الوقت الذى يقتلون فيهم كل روح للمقاومة أو العزة أو الكرامة ، لقد بلونا هذه المدارس فى مصر هنا قديماً وحديثاً .

فلم تزل خيانة توفيق " خديو مصر المشهور " ترن فى كتب التاريخ وعلى أرض هذا

البلد الأمين .

استمع معى إلى البيان الذى أصدره توفيق لكى يستدعى أعداء البلاد على أبنائها ،

وينذر بشديد العقاب كل من يقاوم الإنجليز فى احتلالهم أرض الوطن .

أنه يقول بالنص فى منشوره :

" ليكن معلوماً عند السلطات الملكية والعسكرية فى منطقة قناة السويس أن أميرال

الأسطول الإنجليزى وقائد الجيوش البريطانية العام أنما آتيا إلى مصر لإعادة الأمن والنظام

إليها ، ومن ثم سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التي يريان فى احتلالها ما يساعد على قمع العصيان ، ومن خالف أمرنا هذا ينزل به اشد العقاب " .

وتبع هذا البيان أن قام مواطنون مصريون من مدرسة توفيق الخائنة بالتقدم أمام الجيوش البريطانية الظافرة لكى يبشروا فى الناس برسالة هذه الجيوش التى باركها أفندينا ولى النعم ، وأنها إنما جاءت لكى تنشر الأمن والعمران فى ربوع البلد الأمين .

نعم . . . كان الذين يبشرون بهذه الخيانة أمام الجيش الإنگليزى المغتصب مواطنون مصريون بل ومن الريف وأعيانه الذين ما لبثوا بعد ذلك أن قبضوا ثمن هذه الخيانة من زعيم مدرستهم توفيق آلاف الأقدنة لكل واحد منهم ، أما بقية الشعب فقد تركوا لمصيرهم الأسود أثنين وسبعين عاما كاملة قتل فيهم من قتل وشرد من شرد ، وجاعوا وتعروا وجهلوا وأصبح رجال مدرسة الخيانة وأبنائهم من بعدهم هم السادة الأغنياء الذين ينعمون بخيرات الأرض والجاه والسلطان فى ظل أفندينا ومن توارثوا ملكه من بعده .

كان ذلك مثلا من أمثلة مدرسة الخيانة فى الماضى التى جلبت على هذا الشعب لعنة ظلت تطارده أثنين وسبعين عاما .

وحديثا وقف رجل ومواطن مصرى هو القتيلى أمين عثمان يخطب فى حفل كلية فيكتوريا الإنگليزية سنة 1940 حينما كانت كل البلاد تصرخ من أقصاها إلى أقصاها بالكراهية لإنگلترا وترفض دخول الحرب معها وتصر على سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب ، أقول وقف أمين عثمان وسط كل هذا يخطب فى حفل كلية فيكتوريا ويقول فى بجاحة أنه يشبه إنجلترا ومصر بالزوجين وشاء له خياله الخائن أن يصف هذا الزواج بأنه زواج كاثوليكي لا أنفصام له أبد الدهر ، ثم أمعن فى الخيانة فقال : " حتى لو تركتنا إنجلترا وهى الزوج فلن تتخلى عنها مصر وهى الزوجة بل تسير وراء إنجلترا إلى آخر الأرض . . . "

لم يكتف بهذا بل قام يبشر علنا وعلى رعوس الأَشهاد بهذه الخيانة فيما أسماه " رابطة النهضة " التى أسسها لتكون حزبا ينادى بهذه المبادئ ويبشر بين المواطنين بها بمنطق عجيب هو المنطق الأزلى لمدرسة الخيانة التى تقول أننا ضعفاء وأنى لنا بالأساطيل

والدبابات والمدافع التي لبريطانيا أننا لن نستطيع أن نملكها ، وأذن فمن الخير لنا أن نصادق بريطانيا وفي بجاجة أيضاً الند للند "

كنت اسرح بخيالي في هذا التاريخ البعيد القريب وأنا أستعرض كلام نوري السعيد على لسان مندوبه الذي أرسله بعد أن جبن عن مواجهة المجتمعين من رؤساء حكومات الدول العربية .

قال هذا المندوب وهو الدكتور فاضل الجمالي في أول جلسة حضرها وهي الجلسة الثامنة بعد أن سمع تلخيص ما دار في الجلسات السابقة والقرارات التي تم الاتفاق عليها :

" أن سياسة العراق تتلخص في ثلاث نقاط :

" الأولى تحرير العرب ووحدتهم .

" والثانية : سلامة العراق والمحافظة على صداقتنا مع جيراننا

" والثالثة : وهي التي تتعلق بسياستنا الدولية فقد كانت سياستنا دائماً إيجابية مع الغرب وهذه هي سياستنا المثلثة " ثم تابع كلامه ، واستمع معي جيداً إلى ما يقول :

" وأن العراق مستعد للمساهمة في معاهدة الدفاع المشترك العربي على الدوام ، ولكن علينا أن نكون واقعيين فهذه المعاهدة لا تفيدنا في الدفاع عن حدود العراق الشمالية الشرقية ، ولذلك فأنا ملزمون بالتفاهم مع الغرب للحصول على العتاد وكذلك التفاهم مع جيراننا لتنسيق الخطط .

" وقد اتصلنا بأمريكا منذ سنتين لطلب سلاح ولكن الضغط الصهيوني حال دون ذلك . وعندما سافرت في العام الماضي لأمريكا جددت الطلب وكدنا نصل إلى اتفاق ولكن الصهيونية نجحت في تعطيله وعندئذ أرسلت خطاباً إلى مستر دالاس وذكرت فيه أن العراق حريصة على أن تقف مع العرب ضد الشيوعية "

ثم يمضي بعد ذلك في صراحة غريبة قائلاً :

" وبعد ذلك رأينا ضرورة تنظيم الدفاع عن بلادنا خاصة وأن المعاهدة العراقية البريطانية ستنتهي قريباً وبموجب المعاهدة الحالية فإن بريطانيا عليها أن تساعدنا في الدفاع عن حدودنا ولكن إذا انتهت هذه المعاهدة فسنكون وحدنا للدفاع عن بلادنا "

ثم تأتي بعد ذلك روعة الخيانة سافرة مجلجلة فقد سأل دولة توفيق أبو الهدى رئيس وزراء شرق الأردن - في ذلك الوقت - الدكتور فاضل الجمالي بعد أن امتدت المناقشة .
" ورد في البيان (والمقصود بالبيان هذا هو البيان الذي صدر في بغداد وأنقرة عن حلف نوري - مندريس) نص التعاون بين البلدين لصد العدوان من الداخل أو الخارج أو أى جهة كانت والآن تفضلتم بذكر أن الاتفاق لا يخرج عن تبادل المعلومات ومرور العتاد ، وقد ذكرت تركيا للبنان أن المقصود من صد الاعتداء من الداخل هو إسرائيل فهل يعنى ذلك أن تركيا ستقف ضد أى عدوان من إسرائيل على أى بلد عربى أم أن واجبهم يقتصر على تبادل المعلومات ومرور القوات والعتاد ؟ "

فرد السيد برهان الدين باش أعيان وزير خارجية العراق بالنيابة حينذاك قائلاً :
" كان الأتراك مستعدين للتعاون العسكرى إلى أبعد حد ولكن نظراً لارتباطنا بالدول العربية وعدم رغبتنا فى قبول أى التزامات عسكرية قد تتعارض مع التزاماتنا مع البلاد العربية رأينا الاكتفاء بهذا المشروع المبسط واستبعدنا تبادل الجيوش فإذا شئتم التوسع يمكننا أن نفعل ذلك "

وهنا سئل :

" أفهم من ذلك أن اشتراك تركيا فى صد عدوان إسرائيل يعتبر نظرياً "

وهاكم الرد يا شعوب العرب ويا شباب العرب ويا أرواح شهداء العرب .

لقد رد السيد برهان باش أعيان بالحرف الواحد :

" نعم فهو يعتبر نظرياً وغير قائم بخلاف ما جاء فى البيان المشترك "

أى أن وزير خارجية العراق لا يؤكد فقط أن اشتراك تركيا فى صد عدوان إسرائيل إذا هاجمت دولة عربية ليس نظرياً لفظ ، وإنما هو يكذب أيضاً ما أصدره رئيسه نوري السعيد فى هذا البيان المشترك الذى بشر العرب باتفاق نوري - مندريس ويقرر أن الحقيقة خلاف ما جاء فى هذا البيان .

أو بصريح العبارة يقرر سلامة إسرائيل ومجدها الذى لن يمس بعد أن أصبح نوري حليف حليفة إسرائيل .

دعونى أتكلم بصراحة يا أخوانى العرب أن أخطر ما نواجهه اليوم ليس الاستعمار
وليس الفقر ، وليس الجهل ، وليس المرض وإنما أخطر ما نواجهه اليوم هى مدرسة
الخيانة فى كل شعب من شعوبنا .
لقد قضينا عليها نهائياً فى مصر وأدعو الله أن توفقوا فى القضاء عليها فى أوطانكم
لكى تتطهر أرضنا ومياهنا وتنمو زروعنا بعدما أصابنا التلف وخربتنا الخيانة .

www.anwarsadat.com

